البعد المعنوي في شخصية الإمام الحسين (عليه السلام)

الموضوع: البعد المعنوي في شخصية الإمام الحسين(عليه السلام)
المناسبة: ذكرى ولادة أبي عبد اللّه الحسين(عليه السلام)
الزمان والمكان: 3 شعبان 1418هـ ق/ طهران
الحضور: قادة ومنتسبي حرس الثورة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

أُقدّم من أعماق قلبي التهاني بمناسبة هذا اليوم الشريف, وهذا العيد المبارك للشعب الإيراني, وكل أحرار العالم, وخاصّة أفراد الحرس الأعزاء, الذين اقتفوا درب الحسين بن علي(عليه السلام) وساروا على منهجه، وعاهدوا اللّه بأرواحهم، وثبتوا على عهدهم طوال هذه السنوات العصيبة التي مرت بها الثورة.

لقد كان اختيار يوم ولادة الإمام الحسين(عليه السلام) كيوم للحرس الثوري، اختياراً صائباً وذا مغزىً عميق، وخليق بالتأمل والتدبّر والاعتبار لكل واحد من أفراد الحرس.

كل أعضاء حرس الثورة الإسلامية مطالبون بالتدبّر والتعمق في هذا المعنى، سواء الذين يخدمون منهم في الحرس الثوري أم الذين كانوا يخدمون في لجان الثورة الإسلامية ويؤدون واجبهم اليوم تحت راية قوى الأمن الداخلي، واحتفظوا في قلوبهم ولأنفسهم بشرف حراسة هذه الثورة.

وهذا درس ماثل نصب الأعين على الدوام.

لشخصية الإمام الحسين الألمعية والباهرة، بعدان: بُعد الجهاد والشهادة والإعصار الذي أحدثه على مدى التاريخ، وسيبقى هذا الإعصار ــ على ما يتّسم به من بركات ــ مدوياً على مدى الدهر، وأنتم مطّلعون على هذا البُعد الأول, أمّا البُعد الآخر: فهو بُعد معنوي وعرفاني، ويتجلّى هذا البُعد في دعاء عرفة بشكل واضح وعجيب.

وقلّما يوجد لدينا دعاء يحمل هذه اللوعة والحرقة والانسياق المنتظم في التوسل إلى اللّه والابتهال إليه والفناء فيه، إنه حقّاً دعاء عظيم.

ثمّة دعاء آخر ليوم عرفة ورد في الصحيفة السجادية عن نجل هذا الإمام العظيم، كنت في وقت أُقارن بين هذين الدعاءَين.

فكنت أقرأ أولاً دعاء الإمام الحسين، وأقرأ من بعده الدعاء الوارد في الصحيفة السجادية، وقد تبادر إلى ذهني مرات عديدة أنّ دعاء الإمام السجاد(عليه السلام) يبدو وكأنه شرح لدعاء يوم عرفة, فالأول ــ أي دعاء الحسين(عليه السلام) في يوم عرفة ــ

هو المتن, والثاني شرح له، وذاك أصل وهذا فرع، دعاء عرفة دعاء مذهل حقاً, وفي خطابه(عليه السلام) الذي ألقاه على مسامع أكابر شخصيات عصره, وأكابر المسلمين التابعين في منى تجدون نفس تلك النغمة والنفس الحسيني المشهود في دعاء عرفة.

ويبدو أنّ خطابه ذلك كان في تلك السنة الأخيرة، أو ربّما في سنة أخرى غيرها، لا أستحضر ذلك حالياً في ذهني, لكنه مسطور في كتب التاريخ والحديث.

عاشوراء الشهادة والفناء في الله

إن نظرنا إلى واقعة عاشوراء وأحداث كربلاء، فمع أنها ساحة قتال وسيف وقتل، لكنكم ترون الحسين(عليه السلام) يتكلم ويتعامل بلسان الحبّ والرضا والعرفان مع اللّه تعالى، آخرُ المعركة حيث وضع خدّه المبارك على تراب كربلاء اللاهبة، تراه يقول: «إلهي رضاً بقضائك وتسليماً لأمرك»، وكذا حين خروجه من مكّة يقول: «من كان باذلاً فينا مهجته ومُوطّناً على لقاء اللّه نفسه، فليرحل معنا», كل قضية كربلاء ترون فيها وجه العرفان والتضرع والابتهال.

اقترن خروجه ذاك بالتوسل والمناجاة وأمنية لقاء اللّه، وبدأ بذلك الاندفاع المعنوي المشهور في دعاء عرفة، إلى أن انتهى به المطاف في اللحظة الأخيرة، إلى حفرة المنحر حيث قال: «ورضاً بقضائك», معنى هذا: إنّ واقعة عاشوراء تعد بحد ذاتها واقعة عرفانية, ومع أنّها امتزجت بالقتال والقتل والشهادة والملحمة ــ وملحمة عاشوراء صفحة رائعة بشكل يفوق التصور ــ ولكن إن نظرتم إلى عمق نسيج هذه الواقعة الملحمية لرأيتم معالم العرفان، والمعنوية، والتضرع، وجوهرية دعاء عرفة.

إذاً فهذا هو البعد الآخر في شخصية الإمام الحسين(عليه السلام)، وهو ما ينبغي أن يكون موضع اهتمام إلى جانب البعد الأول المتمثل بالجهاد والشهادة.

القضية التي أروم الإشارة إليها هي أنه يمكن القول: ــ قطعاً ــ إنّ هذا الاندفاع المعنوي، والعرفان، والابتهال إلى اللّه والفناء فيه، وعدم رؤية الذات أمام إرادته المقدّسة، هو الذي أضفى على واقعة كربلاء هذا الجلال والعظمة والخلود، أو بعبارة أخرى: إنّ البُعد الأول؛ أي بُعد الجهاد والشهادة، جاء كحصيلة ونتاج للبعد الثاني.

أي نفس تلك الروح العرفانية والمعنوية التي يفتقد إليها الكثير من المؤمنين ممن يجاهدون وينالون الشهادة بكل ما لها من كرامة، نفس تلك الروح العرفانية والمعنوية تجدها في شهادة أخرى نابعة من روح الإيمان، ومنبثقة من قلب يتحرق شوقاً، وصادرة عن روح متلهفة للقاء اللّه، ومستغرقة في ذات اللّه.

هذا اللون الآخر من المجاهدة له طعم ونكهة أخرى، ويضفي أثراً آخر على التكوين.

نحن شهدنا في فترة الحرب نفحات من تلك النسمة المقدسة، ولم يكن ما سمعتموه من تأكيدات سماحة الإمام على قراءة وصايا الشهداء, وصايا صرفة لا يبتغي شيئاً وراءها ــ حسب ظني ــ. فهو نفسه كان قد قرأ تلك الوصايا، وأثرت في قلبه المبارك تلك الجمرات المتلظّية، فرغب في أن لا يُحرم الآخرين من هذه الفائدة.

كما إنني والحمد للّه كنت طوال فترة الحرب, وما بعدها, وحتى يومنا هذا أستأنس بقراءة هذه الوصايا؛ ولاحظت كيف أنّ بعضها نابعة من أعماق روح العرفان.

فالمرحلة التي يبلغها العارف والسالك على مدى ثلاثين أو أربعين سنة؛ يتعبد ويرتاض، ويواصل الدراسة على يد الأساتذة، ويكثر من البكاء والتضرع ويكابد المشاق لأجلها، يستطيع أن ينالها شاب في مدّة عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً، أو عشرين يوماً في الجبهة.

أي منذ اللحظة التي يتوجه فيها ذلك الشاب إلى الجبهة بأي دافع كان, مع وجود الدافع الديني الممتزج بحماس الشباب, ثم يتحول ذلك الاندفاع لديه بالتدريج إلى عزم على التضحية والجود بكل وجوده، ويسطر ذكرياته أو وصيّته، وهو من تلك اللحظات وحتى لحظة استشهاده يزداد تحمساً وشوقاً، ويصبح سيره أسرع وقربه أدنى، إلى أن تأتي الأيام الأخيرة وتحل الساعات واللحظات الأخيرة، فإن يكن قد بقي منه شيء حينذاك، فهو كجمرة تتلظى، تلسع قلوب من يقرأون تلك الوصايا.

يلاحظ المرء بكل وضوح في ذكريات من استشهدوا نفحة فوّاحة من نفس تلك الروح الحسينية.

إذاً فلحادثة كربلاء سند معنوي متين.

هذا الإعصار الخالد على مدى التاريخ ــ وكانت قصور الظلم تخشاه على الدوام وتتقهقر أمامه ــ متى ما أطل عبر مختلف الحقب التاريخية، يأتي بفعل شبيه بفعل ذلك اليوم، كما هو الحال في ثورتنا.

وهذه الواقعة الكبرى التي كان أثرها ملموساً في كل برهة زمنية على مدى التاريخ، قضت على الكثير من سلالات الجور، وأكسبت الكثير من الناس الضعفاء العزّة والمنعة، ونفحت العزم في قلوب الكثير من الشعوب المقهورة، وجهّزت الكثير من الناس بسلاح الصمود في سبيل اللّه.

وفي عصرنا أيضاً استطاعت هذه الواقعة، ومن خلال دراية إمامنا الكبير، أن تَهُبَّ في مجتمعنا فجأة ــ قبل انتصار الثورة ــ كهبّة الإعصار الأول.

وإنّما يُعزى هذا إلى الدعاء، وذكر اللّه، والابتهال إليه، والارتباط به.

وقد كان الإمام (رحمه اللّه) من أهل هذا النهج، كان من أهل الذكر والخشوع والدعاء, وسر تألّقه يكمن في هذا المجال، وتأثيره في النفوس ينبغي أن يكون في الأغلب منشأه هذا.

المبادئ والأهداف المقدسة للثورة الإسلامية

أعزائي, إنّ ما يجب على كل واحد من أعضاء الحرس الثوري، ومن غيرهم، وكل من يرى في عنقه مسؤولية إزاء أمانة الإسلام وأمانة الثورة ــ في حياة الإنسان الحاضرة والمستقبلية ــ ويرى لقيم الإسلام دوراً وأهمية، بأنّ يعلم ان القضية لم تقف فيه الحد الذي انتهت عنده الحرب، وأنّ المساعي لم تبلغ نهايتها بعد مرور عقد أو عقدين على انتصار الثورة؛ وسبب ذلك واضح وهو, أنّ العداء لهذه الحركة ــ حركة الصلاح والفلاح ــ لم يتوقف، ولم تنته العناصر المعارضة.

ذوو التدبير من الأعداء لا خصومة لهم مع شخص.

ومعنى هذا أنّ الجبهة المعادية قد تعلّمت أنه متى ما عجزت عن مجابهة حركة عظمى كالثورة الإسلامية، ونفذت طاقتها دون المجابهة وجهاً لوجه، عليها أن تنسحب على وجه السرعة, وتتوارى خلف خندق المواجهة ريثما تؤاتيها الفرصة.

وقد مارست هذه اللعبة تقريباً مع جميع الثورات التي وقعت في القرن العشرين.

تعلمون أنّ القرن العشرين كان قرن الثورات والانتفاضات الشعبية, التي اندلعت على أساس المُثل والتطلعات والأفكار الحديثة؛ حيث افتتحت العقود الأولى من هذا القرن بالثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، واستمر الوضع على هذا المنوال بالنسبة للحركات اليسارية، وأيضاً الحركات اليسارية التي لم تنضوي تحت المنهج الماركسي تماماً، إلاّ أنها تحمل رؤية مسبقة على كل حال، إلى أن وقعت ثورتنا وتلتها أيضاً ثورات أخرى.

لقد سلكوا هذا النهج مع عشرات الثورات التي اندلعت في مختلف بقاع العالم، فأطاحوا الحكومات عسكرياً، وقامت على أنقاضها حكومات وأجهزة ومؤسسات, ومعنى هذا أنهم متى ما وجدوا في أنفسهم القدرة كانوا يدخلون الميدان ويقمعون تلك الثورات منذ بدايتها؛ إذ إنّ بعضها لم تكن منذ البداية قادرة على الصمود، وانتهى بها الأمر إلى الهزيمة والاندحار.

أما تلك الثورات التي وجدوا أنفسهم عاجزين عن مجابهتها؛ فإضافة على أنهم لم يتركوا مضايقتها والتهجّم الإعلامي وفرض الحصار الاقتصادي عليها، بغية إنهاكها، فقد اتخذوا لهم مكمناً يتربّصون منه؛ لكي ينقضّوا عليها متى ما شعروا بانهيار قواها، ليسددوا لها الضربة القاضية.

ونجحت ضرباتهم في أكثر المواقف، واستطاعت الكثير من التيارات المعارضة لتلك الثورات أنّ تتحرك ــ بعد العزلة والاندحار ــ وتَمْسك بزمام الأمور، وتسيطر على الأوضاع، وتسيّر دفّة البلاد.

والجبهة المعادية عموماً لا كشخص وفرد، انتهجت هذا الطريق مع إيران منذ انتصار الثورة، إلاّ أنهم لم يجدوا على مدى السنوات الثمانية عشرة التي مرّت على هذه الثورة حتى ثغرة واحدة تبعث الأمل والارتياح في صفوفهم.

كنت قد التقيت في عهد رئاستي للجمهورية بزعيم حركة ثورية ــ وهو من الساسة المعروفين في العالم ــ التقيت به في بلده، وكان حينذاك قد جاء بعمل يتنافى مع ادعاءاته الثورية والشعارات التي ينادي بها، فسألته عن المسوّغ الذي أباح له القيام بذلك العمل، فضحك وقال: هذا تكتيك.

فقلت له يكون التكتيك مقبولاً فيما إذا لم يؤدِ إلى تغيير المسار العام كلياً، وأنتم قد غيّرتم مساركم, وهذا هو الذي حصل، إذ تغيّر مسيرهم وتوجههم بالكامل, كان تبريره, إنه يناور ويستخدم التكتيك ! أي تكتيك هذا الذي يؤدي بالمرء للخضوع لسيادة عدوّه؟ وهل يسمّى تكتيكاً ما ينتهي بالإنسان إلى التراجع عن كلامه، وتغيير مساره كلياً؟! وأمثال هذه الظواهر مشهودة في سجلات تلك الثورات، وهي مما يحفز مطامع العدو ويبعث فيه الأمل؛ فيكمن لها بالمرصاد, وكثيراً ما كان ينجح في خططه، كما حصل في كل الحالات تقريباً.

أما بشأن ثورتنا؛ فقد كان لوجود الإمام ــ بما يتّصف به من رؤية وبصيرة وحزم في التمسك بأحكام اللّه, واتخاذ حكم اللّه وحلاله وحرامه ملاكاً في الأمور ــ عائقاً يَحول دون ظهور أدنى تمايل صوب العدو طوال تلك السنوات العشرة.

ومن بعد رحيل الإمام انصبّت الجهود على انتهاج نفس ذلك المسار, ربّما ظهر أحياناً من بعض الأشخاص ما يوحي للعدو بأنّه استطاع الحصول على بعض الأنصار، ولكن سرعان ما ينكشف له أنه وهم باطل.

وبفضل اللّه لم يطرأ حتى الآن على معالم الثورة ما يبعث الأمل في قلب العدو؛ فما زال العدو كامناً يتربّص, وهذا ما ينبغي أن يدركه الجميع.

إنّ الشيء الوحيد القادر على سَوْق الثورة, والتوجّه العظيم لهذا الشعب على الطريق الذي فيه الصلاح والفلاح والعزة ورضا اللّه وسعادة الدنيا والآخرة، هو الوعي والاستعداد والاندفاع لحراسة الثورة.

وهذا الاندفاع رهين بوجود ذلك الجانب المعنوي.

وما تأكيدي على الجوانب المعنوية في لقائي مع الأُخوة أعضاء الحرس الثوري، ومع الشرائح الثورية، ومع الأخوة والأخوات الذين يضطلعون بمسؤوليات خطيرة في مختلف القطاعات، إلاّ لأنّ هذا التوجّه والابتهال إلى اللّه والاتصال القلبي به كفيل باقتدار ورسوخ القوى التي تريد تحدي ومقاومة تلك الجبهة, ولا طريق آخر سوى هذا.

إذا ضعفت هذه الصلة باللّه، ووقع الإنسان صريع نزواته، وصارت توجهاته محكومة بأهوائه، تضعف عند ذاك قدرته على مجابهة العدو.

الإنسان في معرض الأهواء والرغبات، وليس من اليسير صيانة الإنسان بالمرّة عنها، إلاّ أنّ المهم هو أن لا يسمح للأهواء النفسية والمصالح المادية والرغبات التافهة أن ترسم للإنسان مسار حياته، وتعيّن له النهج الذي يقتفيه، ويكون لها دور حاسم وقدرة على استبدال السبيل الذي يسلكه.

إنّ ما من شأنه تقليل الأضرار في هذا المجال هي تلك القضايا المعنوية والأخلاقية والدعاء والذكر والتوجّه إلى اللّه, وتهذيب النفس وبناء الذات وتطهيرها من الرذائل، وهذا السلوك على قدر كبير من الأهمية.

نعم, ما أكثر الأشخاص الذين يُكثرون من الدعاء والذكر وما شابه هذه الأعمال، لكنهم لم ينجحوا في استئصال الرذائل والأنانية والكبر والبخل والحرص والحسد والحقد وسوء الظن والكيد لهذا وذاك، من نفوسهم، أو إلغاء تأثيرها على سلوكهم.

وعلى العكس من ذلك تلك الجنّة الأخلاقية التي أرادها الإسلام للناس؛ فالإسلام أراد للناس أن يتراحموا في ما بينهم، وأن يهتمّ كل منهم بمصير الآخر، ويحرص على مصالحه، وأن يشارك الآخرين في معاناتهم ويسعى في تصحيح أخطائهم، وأن يدعو أحدهم للآخر، وأن يتعاملوا بالمودة والرأفة «وتواصوا بالرحمة».

المحبّة بين الأُخوة، وبين الأصدقاء، وبين الأخوات، وبين أفراد الأُمة الإسلامية، والارتباط العاطفي، وحب الخير للآخرين، صفات فاضلة ونبيلة، ويجب على المرء أن يعمل للإستزادة منها.

إنّ أقبح ما في الإنسان من صفات هو أن يجعل ذاته ومصالحه المادية محوراً، ويكون مستعداً لتدمير وإيذاء أُناس كثيرين في سبيل إشباع رغباته الخاصّة, هذه الصفات ينبغي معالجتها واجتثاث جذورها من قلوبنا, وهذه المعاني موجودة في تلك الأدعية.

على الرغم مما نُقل إلينا من أدعية مأثورة عن جميع الأئمةΓ ــ على ما أتصوّر ــ إلاّ أن الشيء المثير فيها هو أنّ أكثرها وأشهرها هو المنقول عن ثلاثة أئمة, كانوا قد قضوا أعمارهم في صراعات كبرى ومريرة, أولهم أمير المؤمنين(عليه السلام), الذي

نُقل عنه دعاء كميل، وأدعية أخرى فيها معان ومفاهيم كبيرة, ومن بعده الأدعية المروية عن الإمام الحسين(عليه السلام)؛ كدعاء عرفة الذي يزخر حقّاً بمُثُل تثير الدهشة, ثم الإمام السجاد(عليه السلام)، ابن واقعة عاشوراء وحامل رسالتها، والمجاهد في قصر الجور؛ قصر يزيد, هؤلاء هم الأئمة الثلاثة الذين كان لهم الدور الأبرز في ميادين الصراع، والأدعية المأثورة عنهم هي الأعمق، والعبر المستقاة من أدعيتهم هي الأكثر.

تأمّلوا هذه السجايا الأخلاقية الواردة في الصحيفة السجادية.

أوصيكم أيّها الأعزاء فرداً فرداً، أن تأنسوا جهد المستطاع بمضامين الصحيفة السجادية فهو كتاب عظيم.

وإذا وُصِفَت بأنها زبور آل محمّد9، فهي هكذا حقاً، فهي زاخرة بالسجع المعنوي، هي دعاء ودروس؛ دروس في الأخلاق، وفي علم النفس، وفي الشؤون الاجتماعية.

تأملوا هذه الجملة الواردة فيها: «اللّهم إني أعوذ بك من هيجان الحرص وسؤرة الغضب، وإلحاح الشهوة», إنّه يبيّن لنا ــ بلسان الدعاء ــ كل واحدة من السجايا المعنوية والأخلاقية، والجذور الفاسدة التي تعتمل في نفوسنا.

يجب أن تسألوا اللّه تعالى حين الدعاء والمناجاة، الخلاص والنجاة من هذه المشاكل الداخلية والنفسية.

والمجتمع الذي تنشأ مجموعة كبيرة من أفراده على هذه الخصائص التربوية لا تؤثر فيه أي من تلك الأساليب المعادية.

إنّ مجتمعنا والحمد للّه مجتمع شاب؛ أي أنّ نسبة الشباب أكبر، وستبقى هذه الظاهرة بارزة فيه حتى سنوات طويلة، ريثما يصل الدور إلى أجيال تقليل النسل، بعد سنوات عديدة, والحالة التي عليها مجتمعنا الحاضر وحتى سنوات مديدة، هي أنه مجتمع شاب.

والشباب من مظاهر النِعَم الإلهية على الإنسان؛ لأنّ الشاب يتّسم بالنقاء والإخلاص, إلاّ أنّ العدو يركّز في خططه على جيل الشباب؛ بسبب بعض نقاط الضعف التي يتصّفون بها.

ولكن نقاط القوّة لدى الشباب أكثر بكثير من نقاط الضعف.

لو أنّ الدعاء والتوسل المقرون بالمعرفة أُتُّخِذَ في هذا المجتمع منهجاً وسلوكاً, بأن يكون التوسل عن معرفة, وليس خالياً من المعرفة والإدراك، أي بالمعنى الصحيح للتوسل الذي أوصانا به القرآن، والروايات المنقولة عن الأئمة، ونهج البلاغة, ويمكن أن تكون الصحيفة السجادية خَيرَ معينٍ لنا في هذا الصدد, توجهوا إلى هذا المعنى وإلى هذا المقام المعنوي، تَعارَفوا مع الأدعية، وعَرِّفوا هذا النهج للشبّان الآخرين، ولأبنائكم,

وأن يكون ذلك, في قالب كلمات الإمام السجاد(عليه السلام) التي وردت في الصحيفة السجادية، وأمثال ذلك، ونهج البلاغة يتضمن طبعاً نفس هذه الروح المعنوية ــ وإذا وصل المجتمع إلى إدراك حقيقة هذه المعاني يكون حينذاك مجتمعاً يخشاه كل عدو مستكبر، ويفقد الأمل بإمكانية احتوائه أو هضمه.

وعليه أن يعلم أنه طالما كانت روح الإسلام، ومعنوية الإسلام، والتعبّد بالإسلام، والاعتقاد بالإسلام موجوداً في المجتمع، يستحيل على أي عنصر أن يُزيغ بهذا الشعب وهذا المجتمع عن صراط الثورة الإسلامية المستقيم.

أسأل اللّه أن يوفقكم جميعاً، وأن يوفق شبابنا كافة ليستطيعوا بإذن اللّه معرفة هذا الطريق وتعلّم هذه الأحكام والتعاليم والمعارف النيّرة، وأن يسيروا على هذا السبيل وينتفعوا، وينفعوا ببركاته هذا الشعب وهذا البلد والأجيال القادمة، في ظل رعاية ولي العصر أرواحنا فداه.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته